

المقاربة الصوفية التجانية للأمن الشامل في الجزائر في ضوء التحديات الجيو-سياسية الراهنة

The Tijani Sufi Approach to Comprehensive Security in Algeria in Light of Contemporary Geopolitical Challenges

أ.د سليم دحه¹¹ مخبر التنمية الاجتماعية وخدمة المجتمع- جامعة الشهيد حمه لخضر- الوادي (الجزائر)

Salim-daha@univ-eloued.dz

ملخص: تقدم هذه الورقة البحثية قراءة أكاديمية في مضمون المقاربة الصوفية التجانية للحفاظ على الأمن الشامل في الجزائر، في وقت تعددت وتداخلت فيه التحديات والتهديدات الأمنية التي تواجهها هذه الدولة في محيطها الإقليمي وفي علاقاتها مع الفاعلين الدوليين. ولعل التزام الجزائر بدعم حركات التحرر وإقامة علاقات دولية اقتصادية منصفة وفق مبادئ القانون الدولي يجعل منها المدافع الأخير عن حقوق الشعوب والمتعرض الأكبر في المنطقة للتحديات الأمنية.

ينبني المقاربة الصوفية للأمن الشامل في الجزائر مضمونها على بناء الفرد روحياً ومادياً من خلال الحاجة الضرورية للأمن الروحي، ومن ثم الأمن المجتمعي فالأمن الشامل. إنها رؤية منتظمة ومتماسكة تتبع التدرج في معالجة معضلة الأمن وفق نهج تواصل تعليمي وتربوي ينطلق من الفهم الصحيح للمتغير الديني وتوظيفه بالشكل السليم لخدمة الأمة والحفاظ على وحدة الوطن.

خلصت الورقة البحثية إلى التأكيد على ضرورة المحافظة على الأمن الشامل وفق نهج تعاوني محكوم يشترك فيه الجميع، بدءاً بالمؤسسات الرسمية التي توفر الوعاء السيادي للنشاط، وكذلك الفواعل غير الرسمية من مجتمع مدني وهيئات خاصة.

الكلمات المفتاحية: الأمن الشامل ؛ الدولة الجزائرية ؛ المقاربة الصوفية التجانية ؛ الأمن الروحي.

Abstract: This research paper offers an academic analysis of the Tijani Sufi approach to maintaining comprehensive security in Algeria, at a time when the country faces numerous and intertwined security challenges and threats within its regional environment and in its relations with international actors. Algeria's commitment to supporting liberation movements and establishing equitable international economic relations based on the principles of international law makes it a staunch defender of peoples' rights and the region's greatest vulnerability to security challenges.

The Sufi approach to comprehensive security in Algeria is based on the spiritual and material development of the individual, beginning with the essential need for spiritual security, followed by societal security, and ultimately, comprehensive security. It is a systematic and coherent vision that addresses the security dilemma gradually through a communicative, educational, and pedagogical approach. This approach stems from a correct understanding of religious variables and their proper utilization to serve the Algerian nation and preserve national unity.

The research paper concludes by emphasizing the necessity of maintaining comprehensive security through a well-governed, cooperative approach involving all stakeholders, starting with official institutions that provide the sovereign framework for activity, as well as non-official actors such as civil society and private organizations.

Keywords: Comprehensive security; the Algerian state; the Sufi Tijani approach; spiritual security.

* سليم دحه. أستاذ الفلسفة السياسية – جامعة الوادي (الجزائر)

مقدمة:

مع نهاية القرن العشرين، وسعت مدرسة كوينهاجن من مفهوم الأمن ومستوياته وأبعاده فصار يشمل- زيادة على البعد العسكري- أبعاد مختلفة منها الإقتصادي، الاجتماعي، السياسي، الإنساني، السيبراني... كما تمت دراسة الأمن وسبل تحقيقه على مستويات عديدة للتحليل (الفرد، الجماعة، المجتمع، الدولة، الإقليم، الجهة، العالم..). على المستوى العملي، كان لزاماً على المشتغلين بالمهام الأمنية أن يؤسسوا لمنظومة أمنية متكاملة وبنظم متشابهة لها ترابطها الكلي واستقلالها الجزئي ونقاط الالتقاء والالتحام، هذا الكل المتصل يطلق عليه الأمن الشامل. ويستند الأمن الشامل على المشاركة المجتمعية كعنصر أساسي في العملية الأمنية، وكذلك التعاون المؤسسي بين كافة أجهزة الدولة ومؤسسات المجتمع المدني والقطاع الخاص، يضاف إليه تطوير مفهوم الأمن ليشمل كافة جوانب الحياة.

في النطاق الإقليمي للجزائر، تتعدد وتتفاقم التحديات الأمنية التماثلية واللاتماثلية. ويشكل عدم الاستقرار السياسي في بعض دول الساحل الإفريقي وليبيا الهاجس الأمني الأبرز الذي تنبثق عنه بقية التحديات المتمثلة في الجريمة المنظمة والإرهاب والهجرة غير النظامية. ولعل المقاربة الأمنية الشاملة قد أخذت في التبلور منذ سنوات، بما تتضمنه من تصورات ومبادئ واستراتيجيات التي تُستخدم لوصف، وتحليل، وتخطيط، وتنفيذ أنشطة تتعلق بالأمن بهدف حماية الأفراد والمؤسسات والإقليم بأكمله من التهديدات. في هذا السياق الأمني الموسع، تلتزم الفواعل غير الرسمية المشكلة للمجتمع المدني بدورها الفعال في المساهمة في الحفاظ الأمن الشامل للأمة الجزائرية على إقليمها وفي علاقاتها الخارجية.

يأتي المنهج الصوفي التجاني¹ في مقدمة هاته الفواعل غير الرسمية لتعزيز ودعم الجهود الرسمية في مهمة الحفاظ على الأمن الشامل بمختلف أبعاده ومستوياته. هذا المنهج السلوكي في التنشئة وبناء المجتمع يشكل مقاربة سوسيو-سياسية تنطلق من ثلاثية العمل والعلم والعبادة، وتنتهي بترسيخ قيم المواطنة والانتماء للدولة الجزائرية والمساهمة الفعالة في العملية السياسية من خلال تعزيز الشرعية والمشاركة السياسية وتوحيد الجبهة الداخلية في مواجهة التحديات الإقليمية.

وعليه يمكن أن نطرح السؤال:

- ما هو مضمون المقاربة الصوفية التجانية للأمن الشامل في الجزائر؟

I. التأسيس النظري للأمن والأمن الشامل:

منذ ثمانينيات القرن العشرين بدأت دراسة الأمن تتجه إلى التركيز على صناعته بشكل مسبق قبل وقوع التهديد وعدم الاكتفاء برد الفعل بعد وقوعه. أصبح الأمن استراتيجية متعددة الأبعاد، ذلك أن التهديدات التي يتعرض لها المجتمع لم تعد تتوقف على القوى العسكرية التي تسعى لاحتلال الأرض والهيمنة على مقدرات الدولة وإذلال المجتمع، لقد أصبحت التهديدات تنبع من داخل المجتمعات.

1.I مفهوم الأمن:

دخلت كلمة "أمن" (secure) اللغة الإنجليزية في ثلاثينيات القرن السادس عشر، مشتقة من الكلمة اللاتينية Securus، وتعني "مُخلّص ومتحرر من الخطر، آمن ومطمئن". هذا المفهوم قديم قدم التاريخ البشري، وقد وُجد بأشكال وسياقات وتطبيقات متنوعة بين الناس من جميع الأديان والثقافات والمذاهب والمجتمعات والقبائل والمناطق، وإن كان ذلك بشكل بدائي وليس بمستوى تطوره الحالي. وظلّ هذا المفهوم مرتبطاً بشكل عام بدفاع

¹ التجانية طريقة ومنهج سني في العبادة والسلوك والتقرب إلى الله. تأسست على يد الشيخ أحمد التجاني الشريف الحسني المولود بعين ماضي -ولاية الأغواط بالقطر الجزائري سنة 1737م، والمتوفى بفاس سنة 1815. وقد نشر الشيخ أحمد التجاني الطريقة التجانية في الجزائر وباقي بلاد المغرب العربي والسودان والساحل الإفريقي.

الكيانات الاجتماعية والسياسية عن نفسها وبقاتها في مواجهة التهديدات الخارجية. ويشهد التاريخ المسجل للصينيين والمصريين والقرطاجيين والسومريين والمقدونيين وبلاد ما بين النهرين والفرس والأثينيين على امتلاكهم حساً مجتمعياً راسخاً بمفهوم الأمن، إلا أن أمن الدولة التقليدي غالباً ما كان له الأولوية على أمن الناس عموماً. كانت الحرب البيلوبونيسية (404-431 قبل الميلاد) مثلاً قديماً على مفهوم الأمن القومي التقليدي وتطبيقه بين الدولتين القويتين، أثينا وإسبرطة، حيث لعبت بلاد فارس، القوة العظمى آنذاك، دورها في الصراع. كانت عرضاً بحثاً للسياسة الواقعية، حيث اكتسبت عبارة "الأقوياء يفعلون ما في وسعهم، والضعفاء يعانون ما يجب عليهم" خلال الحوار الأثيني-الميلي معنىً راسخاً لا يزال صالحاً حتى اليوم (Khan، 2022).

ارتبط مفهوم الأمن تاريخياً بالقدرات والإمكانات العسكرية التي تحقق الردع، ومن ثم الأمن. لقد مثل مؤتمر وستفاليا سنة 1648 بداية التأسيس النظري للأمن حيث كانت الدولة تمثل الوحدة الأساسية في العلاقات الدولية، والفاعل الرئيسي في النظام الدولي، ولهذا السبب اقتصر تحليل الظواهر الأمنية آنذاك في إطار الدولة القومية، مما أدى إلى ظهور ما يسمى بالأمن القومي. أما في الوقت الراهن، فقد أخذ الأمن بكل أبعاده العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والمعلوماتية يتجاوز نطاق الوظيفة إلى المسؤولية الجماعية التي تضمن من خلال إستراتيجية وطنية شاملة للأمن.

عرّف التقليديون، أتباع المدرسة الواقعية، الأمن بأنه التحرر من أي تهديد عسكري موضوعي لبقاء الدولة في ظل نظام دولي فوضوي. ولعل تعريف ستيفن والت لدراسات الأمن هو الأوضح على الإطلاق، إذ يُعبّر عن الفهم التقليدي للمشكلة. يُعرّف والت دراسات الأمن بأنها "دراسات التهديد بالقوة العسكرية واستخدامها والتحكم بها". ويستند هذا النهج أساساً إلى وجهة نظرة وجودية واضحة مفادها أن الحقيقة الاجتماعية هي في الغالب نتيجة لتأثير العوامل المادية، وبعبارة أخرى، "العلاقات الاجتماعية، وكذلك التهديدات الأمنية، هي نتيجة لعوامل مادية، وأنها موجودة "بشكل موضوعي" (Šulović، 2010).

أما المدرسة الفكرية الأخرى، التي تُعرف بـ "المُوسّعين"، وعلى رأسهم باري بوزان، فقد تحدّث هذا المفهوم للأمن من خلال توسيع وتعميق أجندة الدراسات الأمنية، أفقياً وعمودياً. وانطلاقاً من البعد الأفقي، يرى هؤلاء المُوسّعون أن مفهوم الأمن قد امتد في الواقع من المجال العسكري حصراً إلى القطاعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والبيئية. أما عمودياً، فينبغي أن يكون مفهوم الأمن المُعدّل منفتحاً أيضاً على كيانات مرجعية غير الدولة (الأفراد، والفئات الاجتماعية، والبشرية جمعاء). ويرى نقاد الفهم التقليدي للأمن أن "العلاقات الاجتماعية والتهديدات الأمنية هي في الواقع نتيجة بناء اجتماعي فكري بين ذاتي (Šulović، 2010).

2.1/ مفهوم الأمن الشامل:

يمكن فهم الأمن الشامل على أنه "حالة يتم فيها الاستعداد للتهديدات والمخاطر التي تُهدد الوظائف الحيوية للمجتمع". ويشمل ذلك "الاستعداد للتهديدات، وإدارة الاضطرابات والظروف الاستثنائية، والتعافي منها" (Keinonen، 2023).

في تسعينيات القرن الماضي، بدأ مفهوم الأمن بالتطور. ويُعتبر الدكتور الباكستاني محبوب الحق أحد أبرز المؤيدين والمساهمين في هذا المفهوم. مبتعداً عن المفهوم التقليدي، حيث قال ذات مرة: "أعتقد اعتقاداً راسخاً أن العالم يدخل حقبة جديدة سيتغير فيها مفهوم الأمن ذاته - وسيتغير تغيراً جذرياً. سيُفسّر الأمن على أنه: أمن الشعوب، لا الأراضي فقط؛ أمن الأفراد، لا الدول فقط؛ الأمن من خلال التنمية المستدامة، لا من خلال الأسلحة؛ أمن جميع الناس في كل مكان، في منازلهم، في أعمالهم، في شوارعهم، في مجتمعاتهم، في بيئتهم" (Khan، 2022). وبشكل عام، يُشير الأمن الشامل إلى إدراك أن السلام والتنمية مترابطان جوهرياً من حيث المضمون والهدف والفاعلين.

II. أبعاد المقاربة الصوفية التجانية للأمن الشامل:

تقوم المقاربة الصوفية لتحقيق الأمن على معايير روحية وسلوكية أساسها تهذيب النفس وتحقيق الطمأنينة الداخلية، مما ينعكس على سلام المجتمع والدولة من خلال تعزيز القيم الأخلاقية والاجتماعية. إن فكرة تحقيق الأمن مجتمعياً تبدأ بأن يكون الفرد آمناً من داخله، والحقيقة إذن أن الله لما أراد أن يضمن الأمن لـ"مكة" مكن لأهلها حرماً آمناً، وإذا كان الأمن والتهديد لا يلتقيان في نفس المكان فإن دحض التهديد يكون داخل الفرد بحيث لا تتسرب إليه دوافع الصراع من حيث وجود حرمة وقداصة الوازع الديني المتمثل في الحب لله ولرسوله وللصالحين. بذلك يكون مصدر الأمن من داخل الفرد فينتشر إلى الجماعة الأمانة، فيبني المجتمع الآمن والدولة الأمنة. وهو جوهر الرسالة الصوفية التجانية. الأمن الشامل يبدأ من الفرد وينتهي بالأمن القومي.

II. 1. البعد الروحي والأخلاقي للأمن الشامل:

التصوف ظاهرة تعبدية تتعلق بالارتباط بالذات الإلهية دون غيرها، ويتميز الصوفي تحديداً بزهد فيما عند الناس. وقد أرسى شيخ الطريقة التجانية ومؤسسها سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه نهج الزهد، حيث جاء في كتاب جواهر المعاني قوله: "إن زهد الكمال ليس بخلو اليدين من الدنيا، وإنما بخلو القلب، ولا يتحقق الكمال المقام إلا بزهدهم فيما في أيديهم، وتحت تصرفهم، من غير حائل يحول بينهم وبين كنزهم..." "ومن شرط الداعي إلى الله ألا يكون متجرداً من الدنيا بالكلية" (حرازم، 2007).

يهدف التصوف إذن والزهد إلى بناء الفرد المتحكم في أنانيته رغم إقباله على متاع الدنيا، هذه التوليفة التي تجمع بين القيم والغرائز والتخلي والتملك، توجد أفراداً وجماعات ترفض التطرف والصراع مادام يتنافى مع غاياتهم الأسمى وهي رضا الله. الأمن من منظور صوفي يبدأ من الفرد باعتباره يمثل المستوى الأول للأمن، ثم المجتمع فالدولة. وبناء الفرد من وجهة النظر الصوفية يكون وفق الخطوات التالية:

- التربية الروحية المستندة إلى الكتاب والسنة.
- التزكية، وتعني المواضبة على ذكر الله.
- القدوة، وتعني ضرورة الشيخ للمريد.
- المسؤولية، وتعني الإلتزام تجاه الأسرة والمجتمع والوطن.
- الإنفتاح، ويعني التواصل والتفاعل مع المجتمع.
- التكامل، ويعني الجمع بين العلم والعمل والعبادة.

II. 2. البعد الاجتماعي للأمن الشامل:

الأمن الاجتماعي هو الحفاظ على الاستقرار والانسجام وحالة السلام والطمأنينة داخل المجتمع. كما يشير الأمن الاجتماعي إلى برنامج متكامل ومتعدد الفاعلين غايته حماية المجتمع من تحديات العصر كالأزمات العابرة للحدود والبطالة والشيخوخة والحوادث الصناعية... والتي لا يستطيع الفرد حماية نفسه منها هو وعائلته بقدراته الخاصة. كما عرف باري بوزان الأمن المجتمعي على أنه خلق توازن فعلي بين الخصوصية الثقافية والدينية واللغوية والعرقية، وبين ضرورة بناء منطق الاندماج القومي للمواطنين من أجل بناء مجتمع تعددي وعادل (هاشمي، 2023).

يكمّن الفرق بين الأمن المجتمعي والأمن الاجتماعي في كون الأول يشمل الثاني، فالأمن المجتمعي يتكون من مقومات الأمن الاجتماعي الذي يركز على توفير الرفاهية وتحسين نمط العيش من خلال غياب التهديد المادي الذي يقوض أمن الأفراد. وتشير عملية صناعة الأمن الاجتماعي إلى ذلك الميكانيزم الذي يضم العديد من الإجراءات المحصنة للمجتمع، وهو عبارة عن نسق يتكون من تدابير ومعايير تنظيمية وقانونية واقتصادية لمواجهة التهديدات التي يتعرض لها المجتمع. عناصر هذا الميكانيزم هي (قنديل، 2008):

- المراقبة الدائمة للمجتمع للتكهن بالتهديدات المحتملة.

- تطوير وحفظ قيم المجتمع لتفادي الصراع وعدم الاستقرار.

من المنظور الصوفي، يبنى الأمن الشامل اجتماعياً من خلال حل النزاعات وتذليل الفوارق الاجتماعية وتسهيل الحراك الاجتماعي عن طريق تطوير التعليم ومكافحة الفقر بدعم الفئات الاجتماعية الكادحة، ومن خلال تعزيز مكانة البنى الاجتماعية كالأُسرة والمدرسة والمؤسسة الدينية كالزاوية الصوفية والمسجد.. الأمن الشامل هو بناء المجتمع الفاعل والمتماسك.

ظهرت الطرق الصوفية في المجتمعات العربية والإسلامية استجابة للحاجة الروحية والمجتمعية لدى تلك المجتمعات، لقد برز شيوخ التصوف ليحدثوا تحولاً عميقاً فيها بتطوير مؤسسات الزوايا استجابة للحاجات الاجتماعية فجعلوا نصب أعينهم تمكين الناس من بناء علاقة شخصية قوية مع الله ورسوله، واستطاعوا أن يوسعوا من دائرة المنتمين إلى الطرق الصوفية فصارت قطباً للاندماج الاجتماعي. أصبحت للطرق الصوفية وظيفة اجتماعية راسخة تنطلق من تصور فحواه أن الشيخ الصوفي يأخذ على عاتقه مسؤولية تلبية حاجات الجماعة، فذلك من مقتضيات الولاية التي تتطلب الاتصاف بمواصفات حماية الناس وتحمل أعبائهم، وحل مشاكلهم، ورعاية مصالحهم. وإنما أنيطت به هذه المهام بقربه من الله. يقول ذو النون المصري (ت 245 هـ) في علاقة الصوفي الحق بمجتمعه " عون للغريب، أب لليتيم، حفي بأهل المسكنة، مرجو لكل كربة" (الطاف، 2017).

لقد درج خلفاء الطريقة التجانية على تحمل الأعباء الاجتماعية جيلاً فجيل عملاً واتباعاً لمناقب شيخ الطريقة التجانية ومؤسسها سيدي أحمد التجاني الذي كان قبل هجرته إلى فاس في 1798م يجمع المتخاصمين في زاويته بعين ماضي للصلح بينهم أو ينتقل بنفسه إلى حيث الخصومات لإقرار السلم بين الناس ونشر التضامن الاجتماعي الإطمئنان النفسي (لعرج، 2009)، كما كان يوزع القمح على الفقراء والأرامل والأيتام وضعفاء البلد كل جمعة (لعرج، 2009). وفي العصر الحالي ينشط خلفاء الطريقة التجانية بعين ماضي، وكذلك تماسين بولاية توقرت في إصلاح ذات البين وحل النزاعات والتكافل الاجتماعي من أجل بناء المجتمع الأمن. بل إن مسار إصلاح ذات البين وحل النزاعات والتخفيف من التوترات تضطلع به الطريقة التجانية في دول الساحل الإفريقي كمالي والسينغال.

II. 3. البعد الاقتصادي للأمن الشامل:

الأمن في بعده الاقتصادي يعني حسب هيئة الأمم المتحدة: (أن يملك المرء الوسائل المادية التي تمكنه من أن يحيا حياة مستقرة ومشبعة من خلال امتلاك ما يكفي من النقود لإشباع الحاجات الأساسية وهي الغذاء، المأوى اللائق، الرعاية الصحية الأساسية والتعليم) (الجمال، 2023/02/28). من هنا يركز الصوفي على المنظور الجزئي لعلاج التهديدات الاقتصادية، في حين أنّ الأمن الاقتصادي من وجهة نظر أصحاب المنظور الكلي يتعلق بتوفير الاحتياجات الاقتصادية للدولة، وقدرتها تجاه الدول الأخرى، وتتمثل هذه الإمكانيات في امتلاك الدولة لرؤوس الأموال، والخبرات والكفاءات، ومن ثم توفر المورد البشري الذي يحرك عجلة الإنتاج. يقدم خليفة الطريقة التجانية بتماسين سيدي الحاج علي التماسيني² طرحاً عملياً للمنظور الجزئي الخاص بالأمن الاقتصادي بمقولة عملية تعد دستور حياة الفرد اقتصادياً هي: " اللويحة والمسيحة والسبيحة، حتى تخرج الرويحة". وقد ترجمها الخليفة الحالي سيدي محمد العيد التجاني إلى "العلم والعمل والعبادة". و اللويحة تشير إلى لوح حفظ القرآن والمسيحة هي الأداة التي يستخدمها الفلاح التماسيني لحرث الأرض والتحكم في مياه

² أسس الخليفة سيدنا ومولانا الحاج علي التماسيني بأمر من مولانا الشيخ الأكبر سيدي أحمد التجاني رضي الله عنهما الزاوية التجانية بتماسين جنوب ولاية توقرت في بادئ الأمر في 1803 في قصر تماسين. كما يرجع تاريخ افتتاح الزاوية التجانية بتملاحت إلى سنة 1220هـ/1805م، ومنذ ذلك التاريخ وهي تقوم بأدوارها الروحية والحضارية والثقافية والاجتماعية.

السقي، بينما تشير السبيحة إلى أداة للعدّ يستخدمها الصوفي أثناء ذكره لله... وهذه الثلاثية يستمر مواضبا عليها الفرد حتى موته.

هذا الترتيب له دلالاته السيميائية، فاللوحة جاءت أولاً لأن الإنسان مطالب بالعلم حتى تكتمل مداركه العقلية ويصبح جاهزاً للتكليف الإلهي، والمسيحة ثانياً لأن الإنسان مكلف بالعمل لكسب الرزق وتحقيق الاكتفاء، أما السبيحة فأنت في الأخير لحكمة بليغة، فبعد أن يؤدي العقل ما عليه تجاه الله، ويؤدي الجسد ما هو منوط به من عمل في سبيل الله، يأتي دور الروح في الأخير لتسمو بذكر الله (تجاني، 2019).

II. 4. البعد التواصلي للأمن الشامل:

التواصل هو عملية نقل هادفة للمعلومات من شخص إلى آخر، ومن مجموعة إلى أخرى بغرض إيجاد نوع من التفاهم المتبادل بينهما استخدام عدة وسائل اتصالية من أجل تبليغ المعنى المطلوب. وتعود نظرية الفعل التواصلي إلى الفيلسوف الألماني هيرماس من الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت للبحوث الاجتماعية. استمد هيرماس نظريته للفعل التواصلي من علم اللغة الاجتماعي، كما أن تحوله إلى فلسفة التواصل جاء من اقتناعه المتزايد بأن الفكر التنويري (مشروع الحداثة) قد ركز على النموذج المتمركز حول الذات، فسعى هيرماس إلى إعادة صياغة المشروع التنويري أو الحداثي من خلال ما سماه البراغماتيقا (التداول اللغوي) (أبو السعود، 2021). من هنا صاغ هابرماس مفهومه الجديد عن العقلانية التواصلية حيث تنشأ: "علاقة داخلية بين البراكسيس (الممارسة) وبين العقلانية، والتي تدرس المتضمنات العقلية التي تفترضها ممارسة تواصلية يومية، وتتيح للمضمون المعياري المرتبط بالفاعلية الموجهة نحو الفهم المتبادل التوصل إلى مفهوم عقلانية تواصلية" (هابرماس، 1995).

وعليه: "فالتواصل يعني عملية انتقال من وضع فردي إلى وضع اجتماعي وهو ما يفيد (اتصل) الذي يتضمن الإخبار والإبلاغ والتخاطب". والتواصل خاصية المجتمع البشري لتحقيق التفاعل والدوران الذي يؤدي إلى تحقيق المصالح وتفعيل الحياة والدال على تعقد العلاقة التواصلية هو الانفجار الرهيب في وسائل الاتصال.

إذا أخذنا مثلاً عن الرؤية الصوفية للأمن الشامل في بعده التواصلي نجد الزاوية التجانية بتماسين أبلغ نموذج لذلك، فقد تبنت رؤية تنموية شاملة ضمن بيئتها المحلية والوطنية، بحيث عنيت برفاء الإنسان واستدامة موارده، فحاربت الأمية، ودعمت مشاريع التنمية المحلية وخاصة توفير المياه، وساندت الفلاحة المستدامة (زراعة النخيل...) لتحقيق الاكتفاء الذاتي ومراعاة البيئة المحيطة والمحافظة عليها، واهتمت بالحرف التقليدية والمحافظة على التراث... والأهم أنها جعلت من الفرد جوهر العملية التنموية بكل أبعادها فاجتهدت في تكوينه نفسياً وأخلاقياً. الزاوية وأدوارها تتموضع ضمن سياق القراءة المتجددة للتراث وتوظيفه للحفاظ على مقومات الوطن.

ضمن النسق التواصلي للزاوية التجانية، تأتي الرسالة أو المعلومة الموجهة للعامة ضمن سياق أو مقتضى الحال، فقد تواكب موسم الزيارة السنوية التي يقوم بها الأحاب إلى الزاوية، أو المناسبات الدينية كالاحتفال المولد النبوي الشريف، أو لقاءات المعايمة بعد كل عيد فطر أو أضحي. وهي خطابات عامة يوجهها الشيخ للمريدين والأحاب بغية النصح والتوجيه وتصحيح الرؤى والمفاهيم. في هذه الحالة يكون الخطاب من فرد إلى جماعة ويراعى فيه التبسيط والعمومية في اللفظ والمعنى، ومواكبة مقتضيات العصر كالتنبيه لمخاطر الثورة التكنولوجية والإلتفاف حول سلطة الدولة والتمسك بالوحدة الوطنية وغيرها. أما الخطابات الموجهة إلى أفراد أو جماعات صغيرة ومحددة فتتميز بقدر من الخصوصية ومراعاة ظروف أصحابها بحيث تذهب إلى السعي في حل الإشكاليات وإصلاح ذات البين والوساطة بين الخصوم وغيرها.

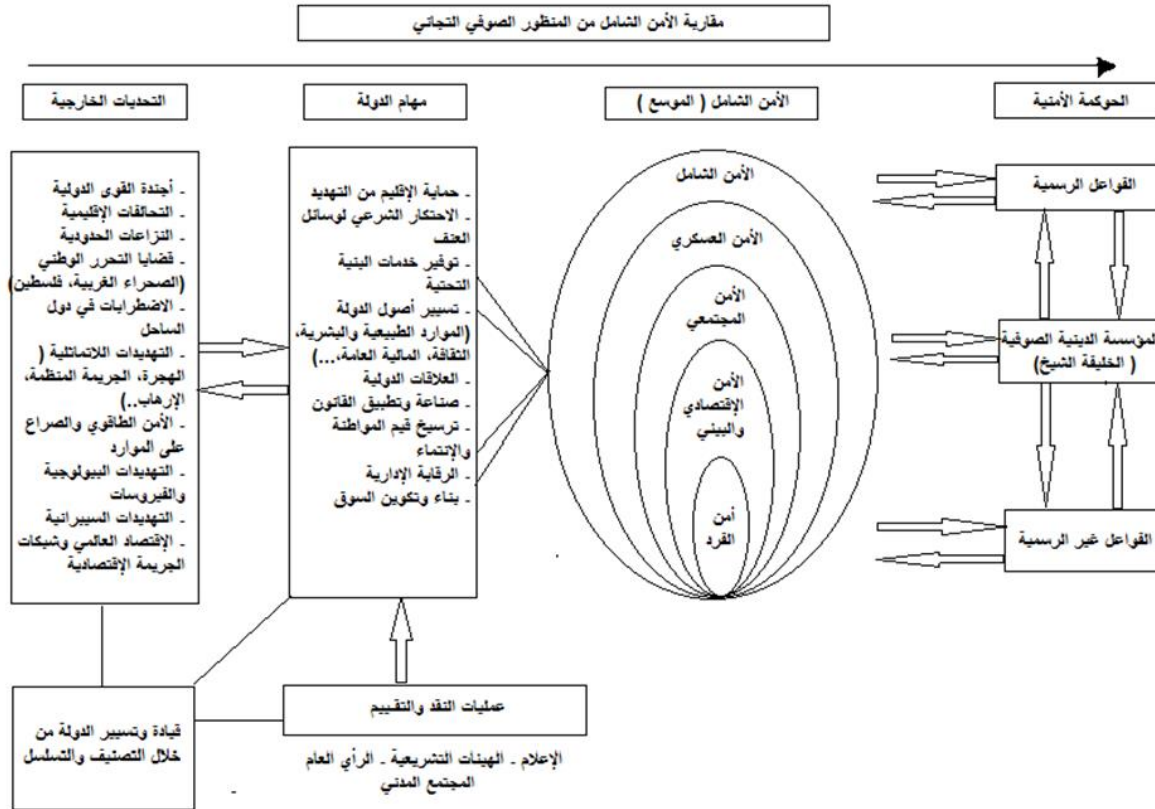
II. 5. البعد السياسي للأمن الشامل:

لا يستطيع أي امرئ أن يتجنب الاشتغال بالسياسة، ذلك أن الانخراط في النظم والعمليات السياسية على اختلاف مستوياتها حتمي، وبالضرورة فإن الإفلات من النتائج المتولدة عنها غير ممكن، فمصير الإنسانية تحدده السياسة والسياسيون. وقد جاء في لسان العرب لابن منظور، أن السياسة هي القيام على الشيء بما يصلحه، والسياسة فعل السائس يقال يسوس الدواب إذا قام عليها، والوالي يسوس رعيته (منظور، د س). أما الدولة من منظور قانوني تعرف بأنها: "كيان قانوني حقوقي ودستوري يتكون من الأرض والسكان والحكم، وهي أعلى أشكال المؤسسات السياسية للمجتمعات المتحضرة" (وايلي، 2007). وعند ماكس فيبر: "الأمة مجتمع وجداني يمكن أن يُظهر نفسه على نحو ملائم في صورة دولة خاصة به، ومن ثم فإن الأمة مجتمع يميل عادة إلى إنتاج دولة خاصة به" (Weber, nation définition, 2024). هذه المفاهيم الثلاث تمثل الإطار الذي ينشط فيه الصوفي المتعبد. وقد درج عند العامة في السابق أن الصوفي منعزل عن أمور مجتمعه وبلده منصرف في خلوته إلى ما يخص آخرته. إلا أن المفهوم المعاصر للتصوف ينصرف إلى التأثير في المجتمع ونقل المضمون الروحي إليه فيعم الارتباط بالله ويسهل التحكم في الإشكاليات الاجتماعية. الخلوة إذن أصبحت في الاجتماع الإنساني وفي خدمة الخلق. والإهتمام بعلاقات الحكم بين الحاكم والمحكوم لدى الصوفي يبرز عند انشغاله بتحقيق مآرب الخلق ودحض الضرر عنهم، وهو ما يجعل المنهج الصوفي التجاني في شقه الساسي مقترن بالتنمية الاجتماعية وخدمة المجتمع.

بالعودة إلى التاريخ، نجد أن أهل التصوف قد قدموا للبشرية العديد من المنافع والأدوار ودحض الظلم وتحقيق العدل، ليس رغبة في الدنيا، ولكن لإحقاق الحق. فتح صلاح الدين الأيوبي الصوفي الأشعري بيت المقدس، ورد الظاهر بيبرس زحف التتار، وقاوم عمر المختار الاحتلال الإيطالي... وقد قدم مؤسس الطريقة التجانية سيدي أحمد التجاني فكرًا صوفيًا حديثًا حيث قال: "بسير زمانك سر، وخيركم من عاش عصره" (لوصيف، 2015)، وهي دعوة صوفية للتأثير الإيجابي في الحياة العامة.

يرتبط الأمن في بعده السياسي بالحفاظ على الاستقرار السياسي واستمرار نظام الحكم في أداء مهامه. والنظام السياسي عمومًا يعبر عن تلك الشبكة من التفاعلات الرسمية وغير الرسمية المتعلقة بظاهرة السلطة ومن يمارسها داخل المجتمع. النظام السياسي مفتوح يتلقى مطالب وتأييد ويقدم مخرجات سياسية كالقرارات والسياسات، وهو بذلك يعمل بشكل ديناميكي تكيفي مع بيئته الداخلية والخارجية. والبديهي أن استمرار الدولة في أداء مهامها يضمن استمرار تدفق مظاهر الرضا والشرعية للنظام الساهر على تلك المهام. لكن فترة الضغوطات التي يتعرض لها النظام السياسي من بيئته تؤثر على استمرار مخرجاته بنفس الكفاءة، مما يتطلب أدوارًا مضاعفة للفواعل غير الرسمية تجاه المجتمع بحيث تعمل على تعزيز تماسك الجبهة الداخلية وترتيب الأولويات. وقد عمل شيوخ وخلفاء الطريقة التجانية على مدى تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر على الوساطة بين الحاكم والمحكوم، فنجد الخليفة التماسيني سيدي أحمد بن حمه قد تقلد عضوية المجلس الوطني إبان الاحتلال الفرنسي مدافعًا عن حقوق الجزائريين وأمنهم الاجتماعي، وانخرط في الثورة التحريرية المباركة داعمًا بالمال والتجنيد وبث قيم نوفمبر، فمن الجوانب المعلنة والمعروفة لنضاله الثوري لقاءاته العديدة مع بالعقيد سي الحواس لتنظيم خلايا الثورة بوادي ريغ (تقرت)، وعلاقته الوطيدة بالقائد مصطفى بن بولعيد فقد كانا عضوان في البرلمان، وتواصله معه في شهر جانفي 1955 من أجل تأمين الأموال وتأسيس خلايا ثورية (جراية، 2019). وفي جزائر الاستقلال، لا يزال الخلفاء التجانيون على العهد في مهامهم الجليلة ضمن النسق السياسي يحرصون على بناء المجتمع الجزائري الموحد في انتماه الوطني، والمتنوع في مشاربه الثقافية. يقدم الشكل التالي موقع المؤسسة الدينية الصوفية المتمثلة في الزاوية التجانية ضمن عمليات صناعة وتحقيق والمحافظة على الأمن الشامل بكل مستوياته وأبعاده:

المقاربة الصوفية التجانية للأمن الشامل في الجزائر في ضوء التحديات الجيو-سياسية الراهنة



في التحليل السوسيو-سياسي لمضمون المقاربة الصوفية للأمن الشامل، كما في الشكل أعلاه، يتضح المسار التعاوني لبناء الأمن الشامل في سياق ما يسمى بالحوكمة الأمنية التي تعني في معناها العام الإدارة المشتركة للشأن العام وفق معيار التنظيم والتسيير العقلاني للتدفقات، وترتبط بمبادئ أهمها المشاركة التي تعني إشراك المجتمع المدني والجهات المعنية الأخرى في تحديد الأولويات الأمنية بما يضمن انعكاس الاحتياجات العامة في السياسات الأمنية. ومنه تستمد المؤسسة الدينية مكانتها في الحفاظ على الأمن الشامل من خلال تركيزها على بناء الفرد الآمن والأمين على مقدرات الأمة، ومن ثم أمن المجتمع في مضامينه الثقافية والاجتماعية والبيئية.

أمام تعدد التحديات الأمنية التماثلية واللاتماثلية تصبح مهام الدولة ووظائفها هي الهدف لأي تهديد. هنا لا يكفي المنظور التقليدي للأمن في دحض التهديدات. ومنه تصبح وظيفة النقد والتقييم لوظائف الدولة عملية حساسة تتطلب من الجميع مراعاة الأولويات والضرورات المتمثلة في الحفاظ على الوحدة الوطنية وسلامة الكيان السياسي الجزائري. ولأن الموارد محدودة بطبيعتها، والمطالب التي ترفع إلى النظام السياسي لا تنتهي، تأتي المقاربة الدينية في معالجة الفجوات الاقتصادية والتباينات الأمنية في مقدمة الوسائل الممكنة للحفاظ على التماسك الاجتماعي.

تقدم المقاربة الصوفية التجانية للأمن البعد الروحي على البعد المادي في علاج تكرار وتفاقم الحاجات الاجتماعية، وهي إذ تقدم الروح على الجسد لا تنفي تلك الحاجات ولا تقلل من أهميتها. والمعنى الشامل للحدث لم يتحقق للإنسان، حيث أن المنظور الغربي قد قدم له تطور كبير وفائق في مستوى الحياة المادية ونظمها، إلا أن علاج الفقر الروحي للإنسان يقدمه التصوف، فالشعور المرهف بالروحانية يتأتى من التعلق بما هو أهم من الرفاه المادي. والإنسان الكامل هو الذي يجمع بين التطور المادي والكمال الروحي.

الخاتمة:

تواجه الجزائر في الوقت الراهن العديد من التحديات المتعددة والمتداخلة في ظل مساعيها للحفاظ على مسارها السياسي في العلاقات الدولية منذ استقلالها سنة 1962. هذا المسار المستمد من ثورة نوفمبر المجيدة والقائم على الحفاظ على الشخصية والمكانة الاستراتيجية للدولة الجزائرية في علاقاتها مع كل الفواعل الدولية. ولعل دعم حركات التحرر وتصفية الاستعمار والحفاظ على علاقات دولية متوازنة وفق مبادئ وأسس القانون الدولي جعل الجزائر في موقع المدافع المستميت عن تلك المبادئ، مما جعلها تواجه العديد من مصادر التهديد. إن الأمن الشامل للدولة الجزائرية عملية متكاملة يشترك فيها الجميع، من الفرد إلى الجماعة فالمجتمع والدولة. وحيث أن فواعل المجتمع المدني مطالبون أكثر من أي وقت مضى بالالتفاف حول مؤسسات الدولة ودعم شرعيتها وتجنيد المجتمع والعمل على تماسكه، تأتي المؤسسة الدينية الصوفية في مقدمة تلك الفواعل بما درجت على القيام به من أدوار فاعلة منذ فترة الاحتلال إلى عهد الاستقلال وبناء الدولة الجزائرية. تقوم المقاربة الصوفية لتحقيق الأمن الشامل على معايير روحية وسلوكية أساسها تهذيب النفس وتحقيق الطمأنينة الداخلية، مما ينعكس على سلام المجتمع والدولة من خلال تعزيز القيم الأخلاقية والاجتماعية. من المنظور الصوفي التجاني، ينبني الأمن الشامل من خلال حل النزاعات وتذليل الفوارق الاجتماعية وتسهيل الحراك الاجتماعي عن طريق تطوير التعليم ومكافحة الفقر بدعم الفئات الاجتماعية الكادحة، ومن خلال تعزيز مكانة البنى الاجتماعية كالأُسرة والمدرسة والمؤسسة الدينية كالزواية الصوفية والمسجد.. الأمن الشامل هو بناء المجتمع الفاعل والتماسك.

الإحالات والمراجع :

- 1- Ehsan Mehmood Khan ,.(2022). COMPREHENSIVE NATIONAL SECURITY: CONTEMPORARY DISCOURSE .Research and Analysis in National Defence University Margalla Papers.Issue-I.3 صفحة .
- 2- Maria Keinonen .(2023). The Concept of Comprehensive Security as a Tool for Cyber Deterrence .Helsinki (Finland): National Defence University.
- 3- Max Weber .(2024) .nation définition من تاريخ الاسترداد 6 13 2025، www.hindawi.org.
- 4- Vladimir Šulović) .October, 2010 .(Meaning of Security and Theory of Securitization . Belgrade :Belgrade center of security policy.
- 5- إريك وايلي. (2007). ، هيغل والدولة. (نخلة فريفر، المترجمون) بيروت: دار التنوير للنشر.
- 6- الشيخ لعرج. (2009). نشأة الطريقة التجانية في بايلك الغرب خلال القرن 18م. 40. معسكر، الجزائر: رسالة ماجستير غير منشورة.
- 7- المنجي لوصيف. (2015). علاقة سيدي الحاج علي التماسيني بسيدي ابراهيم الرياحي وتونس. تأليف الزاوية التجانية بتماسين، التصوف ودوره في السياقات الثقافية الحديثة (صفحة 33). الجزائر: دار الجائزة للنشر والطباعة والتوزيع.
- 8- أماني قنديل. (2008). الموسوعة العربية للمجتمع المدني. القاهرة: مكتبة الأسرة.
- 9- أمينة تجاني. (2019). مقارنة سيميائية للثلاثية العرفانية (اللوحة، المسيحية، السبيحة). الجزائر: دار المجدد للطباعة والنشر والتوزيع.
- 10- رشدي جراية. (2019). مواقف وطنية لزاوية تماسين التجانية خلال الثورة المجيدة. تأليف وادي ريغ والنضال الثوري (الزاوية التجانية بتماسين أنموذجًا)، المجمع الثقافي للزاوية التجانية بتماسين (صفحة 36). الجزائر: دار المجدد للطباعة والنشر والتوزيع.
- 11- سيدي علي حرازم. (2007). جواهر المعاني وبلوغ الأمان. بيروت، لبنان: دار الفكر.
- 12- عطيات أبو السعود. (2021). الحصاد الفلسفي للقرن العشرين. المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي للنشر.
- 13- محمد الطاف. (2017). دور التصوف في الأمن والسلام الاجتماعي. مجلة القسم العربي، الصفحات 265-266.
- 14- محمد بن مكرم بن منظور. (د س). لسان العرب. بيروت: دار صادر.
- 15- مليكة هاشمي. (جانفي، 2023). الأمن المجتمعي دراسة في المفهوم والنظريات والتهديدات. . المجلد 12. العدد 1. المجلة الجزائرية للأمن والتنمية، 1، صفحة 165.
- 16- نزيه عبد المقصود محمد مبروك وهشام مصطفى محمد سالم الجمل. (2023/02/28). الأمن الاقتصادي وأثره في تحقيق المستوى المعيشي الأمثل. مواجهة الأزمات المعيشية وتداعياتها-رؤية شرعية وقانونية (صفحة 1195). القاهرة: جامعة الأزهر.
- 17- يورغن هابرماس. (1995). القول الفلسفي للحدث. (فاطمة لجبوشي، المترجمون) دمشق: منشورات وزارة الثقافة.